

يرسل للإنسان رسالة مكتوبة مركبة للغاية . ولأن الإله المطلق هو صاحبها، فإن مضمونها أكثر تركيباً مما يمكن للإنسان أن يحيط به . ومع هذا، ولأن الإله يريد التواصل مع الإنسان، فقد أرسل رسالته بلغة بشرية مفهومة ﴿لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (النحل ١٠٣) . وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف ١٠٩)، فلو أننا استخدمنا البحر - هذا السائل المادي النسبي، الذي ستكتب به كلمات إنسانية نسبية - للإشارة إلى المدلول الرباني، لعجزت كل الدوال، لأن المدلول الرباني متجاوز لكل ما هو مادي . وقد استخدمت الآية المجاز (لو كان «البحر») لحل معضلة التواصل .

والمجاز في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله يعبر عن هذه العلاقة المركبة : الاتصال والانفصال والتواصل والتجاوز: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥) . إن البنية العامة للمجاز هنا هي تقريب الله من الإنسان من خلال استخدام عناصر من عالم الإنسان المحسوس يتم الربط بينها وبين الله (الله مثل النور)، وتتم عملية الفصل (وتأكيد التجاوز وعدم الكمون) على نطاق مركب للغاية، تظهر في تكثيف المجاز حتى لا نرى مركزاً واضحاً، ولا نرى علاقة محددة بين الله والنور، إلى أن نصل إلى الصورة المجازية «نور على نور»، وهي صورة بلا مركز، خالية تماماً من أي كمون أو حلول أو تجسد، تعبر عن المركز المتجاوز . وحين نفقد الإحساس بالمركز، فإننا ندرك الإله من خلال المجاز، ولكننا لا نسقط في الإحساس بأنه تمت الإحاطة به تماماً من خلال تشبيهه بعناصر أرضية، إذ يظل إحساسنا بتجاوز الله عز وجل للطبيعة والتاريخ إحساساً عميقاً، فهو مثل النور، ولكنه ليس بنور . . فليس كمثل شيء .

إن المجاز يصدر عن إدراك الإنسان لحدوده الأرضية، ولكنه هو أيضاً وسيلتنا